علم الاخلاق

تمهيد

الفيلسوف هربرت سبنسر نظام في الفلسفة سمّاهُ " نظام الفلسفة التركيبية " وضمنهُ مطالب شتى منها مطلب في مبادىء البيولوجيا (اي علم الحياة) وآخر في مبادىء السيكولوجيا (اي علم النفس او الفلسفة العقلية) وآخر في مبادىء السوسيولوجيا (اي علم الاجتماع) وآخر في مبادىء الآثكس (اي الفلسفة الادبية او علم الاخلاق). وباحث المطلبين الاوّلين عويصة يشكل فهمها حتى على الراسخين في ذينك العلمين بخلاف المطلبين الآخرين فان مباحثهما اقرب مثالاً واقلُّ اشكالاً. وقد نشر المقتطف فصولاً من علم الاجتماع مترجمة بقلم بعض كتابنا واما علم الاخلاق فلم ينشر منهُ شيء بالعربية عن سبنسر فرأينا ان نوافي القراء بفصول منهُ كلما تيسر ومن ذلك هذا الفصل في الاعتداء او العدوان

(١) الاعتداء

يراد بالاعتداء اعمال متعددة متنوعة يتعذر الكلام عليها كلها في مقال واحد. فنقتصر الآن على الاعمال التي تلحق ضرراً بدنيًّا بالغير من الجرح الى القتل

غير ان بين الاعمال الدموية اي التي تعد قتلاً تامًّا او جزئيًّا صنوفًا شتى لا تندرج تحت الاعتداء على ما يفهم منهُ عادةً. مثال ذلك الاعمال التي لا تنطوي على عداوة او خصام. واوطأ قتل الاطفال

لم يكن القدماء يحسبون قتل الاطفال جناية ولا يزال بعض الاقوام المعاصرين لنا يجرون هذا المجرى بل ان منهم من يعدهُ امرًا واجبًا. من ذلك قتل الاطفال الذي يرتكب ابقاء على البالغين كما لو كانت قبيلة عرضة لخطر المجاعة فان زيادة عددها قد تزيد الطين بلةً وتفضي الى هلاك رجالها. ومنهُ قتل البنات الذي يرتكب مراعاة للحروب بين القبائل المتضاغنة فان البنات يقتلن اذ ذاك لانهنَّ لا ينفعن لحرب ولا لطراد وزيادتهنَّ تضرُّ القبيلة لانهنَّ يساعدنَ على استهلاك طعامها. ومنهُ قتل الاطفال الذي يرتكب مطاوعة لسورة غضب وهذا يعدهُ بين المتوحشين والامم القليلة التمدن امرًا ليس بذي بال. ومنهُ قتل الاولاد بين آكلي لحوم الآدميين اكرامًا لرؤسائهم احياء كانوا او اموانًا

ومن ضروب القتل المصطلح عليها عند بعض الامم تضحية البالغين عند موت ملوكهم او رؤسائهم. وكذلك تضحية الارامل عند موت ازواجهنَّ ليرافقنهم الى العالم الآخر وتضحية

خدمهم ليخدموهم بعد الموت كما كان يجري في بلدان كثيرة ولا يزال يجري الى الآن في بعض جهات افريقية . اضف الى ذلك قتل الرجل في الداهومي ليحمل رسالة من الملك الحي الى احد اسلافه في الآخرة

ومن القتل ما تأمر به العقائد الدينية كما كان يفعل الفينيقيون واليونان والرومان القدماء والاشوريون والعبرانيون وغيرهم مثل اهالي المكسيك القدماء فانهم كانوا يضحون الوفا من الانفس كلَّ سنة على مذابحهم ويشهرون الحروب بحجة ان الآلهة جائعة

ولننتقل الآن من الكلام على ضروب الاعتداء التي اتخذت شكل القتل ولم تنشأ عن ضغينة شخصية ولا عن حزازات بين قبيل وقبيل الى ضروب الاعتداء التي سببها خاصٌّ الى شرب الدماء . فابدأ باهالي جزائر فيجي فانهم كانوا يعدُّون القتل امرًا حسنًا وهو مما لا يكاد يصدَّق لو لم يروِ الثقات ما يشبه ذلك بين امم اخرى . قال لفستون " جلس رجل من البشمن (في افريقية) ذات يوم امام النار يحدثنا عما لقي في زمانه من الاخطار فقال اني قتلت خمسة من البشمن — امرأتين ورجلاً وولدين . فانتهرته وقلت له انك لك افتخر بقتل النساء والاولاد من عشيرتك . ماذا يقول لك الله يوم تمثل بين يديه . فأجاب انهُ يقول لي لا شلت يمينك ما ابرعك . واتضح لي انهُ كان يكنني عن الله عزَّ وجلَّ كأنهُ زعيم من زعمائهم "

واغرب من ذلك ما رواهُ ولسن عن شعور اهالي اوغندة من هذا القبيل . قال " كان متيسا ملك اوغندة يستخدم غلامًا من بطانته (وهو ابن احد الزعماء) لحمل رسائله اليَّ . فجاءني يومًا وهو يكاد يجنُّ من الفرح ويقول انهُ قتل اباهُ . فسألتهُ ولمَ قتلته فأجاب " اني ملَلت من وجودي خادمًا فأردت ان اكون زعيمًا واستشرت متيسا في ذلك فقال لي اقتل اباك تخلُّدهُ في الزعامة . ففعلت حسب مشورته "

وهناك امثلة وشواهد كثيرة تدلُّ على ان القبائل التي تعيش بالغزو والنهب تعدُّ القتل فضيلة والمسالمة نقيصة . قال بعضهم " لا يزال عرب الحجاز يكرمون اسم " حرامي " الى الآن . والذي نعدُّهُ سعيدًا لانهُ مات على سريره يسمونهُ هم فطيسًا وتندبهُ امهُ قائلة يالبت ابني مات بيد قاتل فتجيبها النادبات الحجازات اللواتي التففن حولها قائلات ان هذا الشرَّ حدث بقضاء الله وقدره[1] "

---

(١) هذا ما ذكرهُ سبنسر عربهاهُ بحرفهِ ولم يقل من اين اخذهُ ليسهل علينا ردهُ الى اصلهِ . اما ان العرب كانوا يفاخرون بالموت قتلاً فظاهر من اقوال شعرائهم . قال المهوأل في قصيدتهِ الغرية المشهورة

ويتالى بعضهم في حسبان القتل فضيلة الى حدّ ان يقولوا ان الفردوس ميراث من يبالغ في قتل اعدائهِ مدى العمر والذين بقتلهم يكونون عبيدًا لهُ مسخرين لخدمتهِ . وفي الشمال الغربي من الهند قبيلة لا تكاد تجد بينها رجلاً لم تقطع يداهُ بالسماء وترى كلاًّ يعدُّ الذين قتلهم في زمانهِ

وكان بين آلهة الهنود والقدماء آلهة للقتل وسفك الدماء . فعندهم الاله اندرا وهم يلقبونهُ بالفاتح المهلك . والاله أجني ويقولون انهُ فطر على ذبح الاعداء وتخريب المدن . وكانوا يشبهون بآلهتهم فيفاخر ابطالهم بالفتوح ويصلّون الى الاله اندرا قائلين " ليكن لنا نصيب من مال من ذبحتهُ وأتريدنا الى منزل الرجل الذي يصعب قهرهُ " وورد في كتبهم الدينية الوصايا الآتية

" ليسعَ الانسان في حمل عدوّهِ على الثقة بهِ لسبب حقيقي ثم ليضربهُ في الفرصة الملائمة متى زلّت قدمهُ قليلاً "

" لا يبلغ الانسان مدًى بعيدًا من النجاح الاّ اذا ضرب عدوهُ ضربة تخترق عظمهُ وتقطع ما فيهِ من النخاع واقى امرًا تعطلكَ الركب لهُ روعًا

" ليُذبح كل ابن او اخ او اب او صديق يلقي العثرة في سبيل نجاح احد "

وكان ملوك اشور يتباهون بذبح الناس جماعات وارتكاب افظع الموبقات كما يستدل من نقوشهم . فقد ورد في وصف اعمال سخاريب انهُ كان يخوض بركَ الدماء بمركباتهِ ويفتخر بما علق بعجلها من اللحم والدم . وقال اشور بانيال في وصف الاعداء الذين قهرهم " فكنت انحب السنتهم من افواههم وافقع اعضاءهم واطرحها للكلاب والادباب والنسور والعقبان وطيور السماء لتأكلها " . وقال تغلث فلاسر في وصف احدى حروبهِ وما حلّ باعدائهِ " فغطّت جثثهم الاودية ورؤوس الجبال " . وكانوا يتصدون بامثال هذه النقوش حفظها لكي يتحدث الخلف باعمالهم الوحشية ويعجبوا بها اي انهم كانوا يعتقدون صلاحها اذ لا يعقل انهم يسعون في تخليدها بالكتابات والنقوش لو كانوا يعتقدون ضد ذلك

تسيل على حدّ الظبات نفوسنا ... وليست على غير الظبات تسيلُ
وما مات منا سيدٌ حتف انفهِ ... ولا طلّ يومًا حيث كان قتيلُ
بنرّب حبّ الموت آجالنا لنا ... وتكرهها آجالهم فتطولُ

وقال عنترة العبسي

فيا ربّ لا تجعل حياتي مذمةً ... ولا ميتتي بين النساء الخوالفِ
ولكن فجاءً يدرج الطير حولهُ ... وتشرب غربان الفلا من جوانحي

ومن هذه الابيات كثير

وكان الغالبون القدماء اذا قهروا عدوًّا لم اكتفوا في القتل وعادوا يحملون رؤوس القتلى ثم ينصبونها على اوتاد او يحفظونها في صناديق . قال قيصر وكان الجرمانيون يتباهون كما قل السكان في البلاد المجاورة لبلادهم من فرط اعتدائهم عليهم . وكان اهالي شمالي اوربا يعتقدون ان الجنة مكان قتال دائم مما يدلُّ اعظم دلالة على مبلغ اعتقادهم بفضل الاعتداء على الغير

ومما يدلك على شغف الناس الطبيعي بالاعتداء على غيرهم شغفهم بقراءة قصص المعارك والحروب فوق كل شغف وتراهم يلقبون كلاًّ من الاسكندر وبطرس وفردريك ونبوليون بالكبير مع ما اراقوا من الدماء الزكية . قال اللورد ولسلي في كلامه عن واجبات الجندي " وعليه ان يعتقد ان واجباته اشرف ما قدر عملهُ لانسان وان يُعلِّم احتقار جميع الاعمال الملكية " . ولا تقصر تلك الواجبات في دفاعه عن وطنه — وهو امر لا يفعلهُ البتة في هذه الايام — بل تتناول الاعتداء على بلاد الغير ولا سيما الشعوب الضعيفة . وشهوة الاعتداء تحول الضعة رفعة والدناءة شرفًا . نقرأ في كتب الهنود ان الاله اندرا انتصر على امرأة في الحرب ونسمع شاعرهم يطنب في مدح انتصار نعدهُ ضربًا من الذلة والجبن فنعجب من ذلك . ونحوّل انظارنا الى جدران الكرنك فنرى رعمسيس ممثلاً بصورة جبار ممسك بشعور ستة اقزام وقد اطاح رؤوسهم عن ابدانهم بضربة واحدة من سيفه فنعجب ايضًا كيف يرضى ان يصوّر صورة قتل انتصار القوي على الضعيف بمثل تلك السهولة . ولكن اذا سطت الجيوش المتمدنة بعددها الكاملة ومدافعها الفتاكة وقنابلها المهلكة على جيش ضعيف لا سلاح لهُ يذكر وغلبتهُ كما يظن الرجلُ الطفل قامت جرائدنا قومة رجل واحد تلتمس الرتب والالقاب لقواد الجيوش الظافرة وحسبت اعمال الجنود المحاربة كريمة واعمال الملكيين المسالمين ذميمة

***

لا ريب اذًا ان العاطفة التي تسرُّ بتفوّق الرجال الباسلين وتطيع من يأمرها بذبح الاعداء من غير ان تسأل عن سبب موجب لذلك — تلك العاطفة لا تزال سائدة في القلوب على ان مفعولها ضعف بفعل عاطفة التوادّ بين الامم والشعوب المختلفة . فكما ان نجاح الامم يقاس بعضهُ بقدرتها على الفتح والتملك كذلك يقاس بقدرتها على كبح جماحها عن الاعتداء . وترى كتب الاولين تشير الى نشوء عاطفة اتحاب والتوادّ بازاء عاطفة التعادي والتضاغن . ولكن لما كانت الاشارة الى ذلك خارجة من افواه الشعراء والحكماء فلا يصحُّ ان تجعل مقياسًا للاعتقاد العمومي السائد حينئذٍ اكثر مما يصحُّ قياس اعتقادنا من هذا القبيل الآن بما يوصينا بهِ وعّاظنا ورعاتنا من الصفح عن اعدائنا . غير ان الاشارة الى روح الغيرية في

كتابات الاقدمين بعد مرور زمان طويل ساد فيه السلام امر يستحق النظر . ومما ينبغي ذكره ايضاً انهُ حدث رد فعل قوي الى التبشير بانكار الذات المطلق (الغيرية المطلقة) بعد سيادة الافعال العدائية وما تتصف به من حبّ الذات المطلق . فقرى الاجزاء القديمة من كتب الهنود الدينية المسماة " مهبهراتا " مفعمة بحديث السماء وحبّ سفك الدماء بخلاف الاجزاء التي هي احدث عهداً منها فانها تذم الحروب التي تقام بلا داع يدعو اليها . فقد جاء فيها ان القتال شرّ الذرائع الى الفتح وانهُ يجب على الملك ان يمدّ فتوحهُ بلا حرب . وجاء فيها " عامل الغير كما تريد ان تعامل . ولا تفعل بجارك ما لا تريد ان يفعلهُ جارك بك وقاعدة العمل ان تعدّ جارك مثل نفسك "

وقال معلم هنديّ عاش في القرن الثالث قبل التاريخ المسيحي " الرجل الصالح الذي لا يفكر في شيء سوى نفع عدوّه لا يضمر لهُ شرّاً ولا يطوي كشحهُ على عداوة ولو كان عدوّهُ يشرع في قتله "

وقال السعدي من كتّاب الفرس " اظهر اللطف حتى لاعدائك . فقد سمعت ان رجال الله الصادقي الايمان لا يحزنون قلب احد من الناس حتى اعدائهم "

وقال لاوتسي الصيني " السلام غاية الغايات . والرجل الذي يسرّ بقتل النفوس لا يصلح لأن تسلم اليهِ مقاليد حكم او سلطة في العالم . والذي كان آلة لقتل نفوس كثيرة سيبكيها بدموع مرّة "

وقال كنفوشيوس " اذا قلّدت ازمة الاحكام فلم تعمدْ الى القتل بوجهٍ من الوجوه . اظهر الميل الى الصلاح ترَ الناس صالحين "

وقال منسيوس " ان من لا يسرّ بقتل الناس يستطيع ضمّ اجزاء السلطنة " . وقال " اذا كان سبب القتال النزاع على ملك ذبح المحاربون بعضهم بعضاً حتى تنطلي الجثث الارض . واذا كان سببهُ النزاع على مدينة ذبح بعضهم بعضاً حتى تتلئ المدينة دماً . فالموت قليل في جنب جرم مثل هذا " . ومع قدم عهد منسيوس فقد كانت عواطفهُ اسمى من عواطف " البرابرة الغربيين " (اي اهل اوربا) الآن . فقد وُصف الرقيّ بانهُ " مجموع الفضائل كلها " ولو مثل منسيوس ما تردّد في وصف الحروب العدوانية بمثل ذلك الوصف

لكن من البشر طوائف لا تكاد تعرف الاعتداء حتى انها في غنًى عن شارع يشرع او وازع يزع . وصف مارسدن اهل سومطرة الاصليين بقولهِ انهم " قوم ودعاء مسالمون طويلو الاناة " وبعبارة اخرى انهم لا يعتدون على احد . وقبيلة طاروس الضاربة في بعض سفوح

حمالايا قبيلة مسالة رقيقة الجانب اختصت بنهايات تلك المطارح السحيقة هربًا من اعتداء المعتدين . وقال مورجان في وصف قبيلة الاروكوى احدى قبائل هنود اميركا ووصف عصبتهم او اتحادهم الذي ألفوه لخالية الزمان وطوارق الحدثان " نفرهم ان الغرض الاسمى من اتحادهم السلام واستئصال روح النزاع الدائم من الصدور تلك الروح التي آلت الى تلاشي الجنس الاحمر تنسًا في نفسي على مرّ العصور . ونتيجة ذلك الاتحاد ان الجنايات والجنح لا تكاد تعرف في نظامهم الاجتماعي حتى انهُ لا يكاد يكون عندهم قانون للجنايات "

والحقيقة التي يهمنا تقريرها هنا انهُ اذا ساد الخصام في جماعة حينًا من الدهر حتى صار الاعتداء عادة انتضى الامر بموافقة الجماعة عليهِ وربما صار واجبًا دينيًا لان في النفس ميلاً فطريًا اليهِ سابقًا للعاطفة الادبية . وبالضد من ذلك الامثلة المذكورة اخيرًا فان فيها ما يدلُّ على كره الاعتداء ومقاومتهِ وسبب ذلك انكره العاطفة الادبية . خذ العبرانيين مثلاً فانهُ بعد ان قطع سببهم اسباب الشحناء المشخصية التي كانت تملأ صدورهم وهم في حالة البداوة وبعد ان انتهت حروبهم وفتوحهم التالية بزمان ساد فيهِ السلام — ظهرت عواطف الغيرية في كتاباتهم وقوانينهم ظهورًا بينًا حتى انك لترى في سفر اللاويين تقريرميدأ يعد مسيحيًا محضًا وهو "حُبَّ قريبك كنفسك" وكان المراد بالقريب الفرد من جماعة الاسرائيليين لا غير على ما يظهر . ثم اتسعت عاطفة التواد بينهم قبل التاريخ المسيحي حتى شملت الاعداء فلما جاء المسيح كانت تلك العاطفة قد ارتقت الى حدّ ان اوصى بتجويل الخد للأطم (لكي لا يقاوم الشر بالشر)

∴

والنتيجة العمومية من كل ما تقدم هي انهُ كلما عظمت العداوات بين القبائل والامم وطال زمانها سادت التصورات والعواطف العدائية واحتكت بالتصورات والعواطف الحبية التي من متعلقات عيشتها الداخلية فتصدُّ الاولى الثانية وتتلفُ صدور الافراد حقدًا وميلاً الى الاعتداء بعضهم على بعض

واصناف القتل التي تقدم ذكرها آنفًا مثل قتل الاطفال وتضحية البالغين اما لاكلهم بين القبائل التي تأكل لحوم البشر واما اكراما للاموات واما اكراماً للآلهة — كلها من مزايا الامم التي اعتادت الحروب . واذا انتقلنا من مزايا هذه القبائل المتناهية من الجهة الواحدة الى مزايا القبائل التي دونها تناهيًا وتطرقًا وفوقها في سلم الارتقاء رأينا انهُ كلما قلَّ الاعتداء الخارجي قلَّ الاعتداء الداخلي ايضًا . ففي عصر المرويين سكان فرنسا القدماء اي في نحو القرن

الرابع والخامس من التاريخ المسيحي كانت الحروب كثيرة حتى ان المدينة الواحدة كانت تشهر الحرب على اختها فكان الاعتداء كثيرًا ايضًا بين الافراد — الملوك يقتلون الملكات وولاة العهد يقتلون آباءهم والاخوة اخوتهم وكان الناس على دين ملوكهم من هذا القبيل . وفي العصر التالي عصر شارلمان كانت فظائع الحروب كبيرة فان شارلمان قطع رؤوس ٤٠٠٠ نفس من السكسونيين في يوم واحد وامر بقتل كل من لم يتنصر وكل من اكل لحمًا ايام الصوم الكبير. وهذا كان شأن العصر التالي المسمّى بعصر الفرسان او عصر الاقطاعات . ثم لما اخذت الممالك تتعد على مرّ القرون والحروب تنحصر في دوائر محدودة والمعايش من صناعة وزراعة وتجارة تتسع دوائرها فتتسع دوائر المعاملات بين الامم المختلفة اخذ الناس يمقتون ما كان من ضروب الاعتداء فاصبحًا واضح الخطاء ويصوّبون كل عمل تراعى فيه حقوق الغير وتحترم عواطفهُ . ومع ان العصور الحديثة شاهدت حروبًا كبيرة فظيعة الاّ ان الاميال السلمية اكثر ظهورًا فيها مما كانت عليهِ قبلاً لان الاعمال الحربية اقل انتشارًا . ثم ان معاملة الافراد بعضهم لبعض معاملة بربرية وحشية زادت بزيادة الاميال الحربية وقلّت بانقطاعها في كل زمان ومكان فتغير المقياس الادبي بموجب ذلك

العلم في ربع قرن

تابع ما قبلهُ

لقد ثبت الآن ان اشعة الراديوم موجودة دائمًا في الهواء الجوي وهي كثيرة في هواء الكهوف وفي المياه التي تخرج من باطن الارض وان مواد كثيرة تشع اشعة مثل اشعة الراديوم ومن هذا القبيل القصدير والزجاج والفضة والتوريا والرصاص والنحاس والبلاتين والاليومينوم ولا يعلم هل ذلك ناتج عن وجود دقائق لطيفة جدًّا منتشرة من عنصر قوي الاشعاع او ان هذا الاشعاع خاصّة من خواص كل العناصر التي يظهر فيها

والمسألة الكبرى التي يتجه الذهن اليها تدور على ماهيّة هذه الاشعة او القوّة المشعّة فما هو بناء دقائق الراديوم والعناصر التي تشبههُ لاسيما وان قوةً تصدر منها على الدوام ومادتها تتغيّر تغيرًا مستمرًّا ولو كان قليلاً جدًّا ويتولّد منها عناصر جديدة

وليس من شأني الخوض في هذا الموضوع لايضاح غوامضهِ فان لهُ اربابهُ علماء الطبيعة الذين جمعوا بين قوّتي التصوُّر الشديد والعلم الرياضي الدقيق ولهم مهارة في التجارب العلمية